المناخ الثقافي والفكري الذي هيّأ ظرفية بروز فكرة البعثات التعليمية للمغرب في عهد السلطان الحسن الأول (1873–1894م)

د.عزيز زروقي
المغرب

مدخل:

ترسخ مبدأ التفوق الغربي على باقي الحضارات والأمم، ونظرية التفوق الحضاري الغربي، حتى أصبحت ثقافة تمكنت من عقول وقلوب أبناء المجتمعات الغربية، انحرفت بالمفاهيم السامية لمعاني وأهداف وغايات التفوق والإبداع نحو الاتجاهات السلبية لتجعل من التفوق مرادفا للغلبة، والإتباع، والسيطرة، والإكراه، والاستعلاء، والانتصار، والفوقية، والاستبداد، والتفرد، والهيمنة، والتسلُط؛ ولتجعل من الآخر المختلف حضاريا وثقافيا أهلا للتبعية، والهزيمة، والانكسار، والإخفاق، والخيبة، والخسران، والفشل، والاستسلام، والاندحار، وغيرها من معاني سلبية مقيتة.

فلسنين طويلة من التبعية للغرب لمناطق وأقاليم المجتمعات الأفريقية والآسيوية وأميركا الجنوبية، ولسنين طويلة متتالية من التفوق الصناعي والتقني والتكنولوجي الغربي على غيرها من المجتمعات، ثم لسنين طويلة مستمرة من التقدم الاقتصادي والنهضة التنموية والتطويرية والتحديثية التي سبقت بها المجتمعات الغربية غيرها من المجتمعات. وكذلك لسنين طويلة غير منقطعة من التميز العلمي والبحثي والطروحات الفكرية المؤصلة سبقت بها المجتمعات الغربية غيرها من المجتمعات والأمم، فلسنين أخرى طويلة متلاحقة من الإبداعات في المجالات الخدمية والصحية والهندسية والفضائية والفيزيائية والبنية التحتية، تفوقت بها المجتمعات الغربية على غيرها من المجتمعات والأمم. جميعها وغيرها كثير من المجالات الإبداعية ساعدت على تكوين نظرية عند المجتمعات الغربية المتقدمة نظرية تفوق حضارتها على غيرها من الحضارات والأمم الأخرى المتخلفة والمستضعفة.

والمغرب واحد من هذه المجتمعات التي أدرك وبشدة مسألة التفوق والتجاوز الحضاري الذي صار إليه في علاقته بأوروبا، نتيجة وضع الجمود الذي عرفه بشكل طمعت فيه القوى الأوروبية التي كشفت ضعفه مع أول صدام عسكري بينهما في معركة "إيسلي" سنة 1844م ، فأصبحت تتحين الفرص لإضعافه والإجهاز عليه. مما حدا ببعض الأصوات بالدعوة إلى المبادرة للإصلاح، كما هو حال: **محمد الكردودي** في كتابه: "كشف الغمة"، ببيان أن حرب النظام حق واجب على هذه الأمة، و**ابن عزوز** في: "رسالة العبد الضعيف، إلى السلطان الشريف". التي رفعها إلى السلطان **مولاي عبد الرحمن** في موضوع تنظيم الجيش المغربي. و**أبي الحسن التسولي** الذي ضمن جوابه "البسيط" **للأمير عبد القادر الجزائري**، آراءه في الإصلاح، التي تتلخص في أنه لا يتم إصلاح بدون قوة نظامية العدد والعدة .

أمام هذا الوضع، ونتيجة لهذه الدعوات، لم يجد السلاطين العلويين من سبيل إلا الأخذ بأسباب النهضة، ومحاولة اللحاق بركبها المتطور. من خلال؛ تجديد الجهاز المخزني وتطويره، ثم عن طريق إرسال البعثات الطلابية لدراسة العلوم العصرية التي هي المفتاح لكل نهضة مفيدة، بتعبير **محمد عبد الهادي المنوني**.

بعثات تمكن من خلالها الطلبة المغاربة اكتساب علوم، وتعلم فنون، وتحقيق مخترعات سأعمد في هذا المقال بسط جانب منها، عبر ضبط المفاهيم والمصطلحات التي تحكمه، بتعريفي للبعثات العلمية بكونها البعثات الرسمية التي أرسلت نحو بلدان المشرق وأوربا، للأخذ بأسباب المدنية الحديثة، وتحديث المغرب. وتم التوافق على أن انطلاقتها كانت على عهد المولى **عبد الرحمن بن هشام**، حيث مثلت هزيمة معركة "إيسلي"، الدليل القاطع على التفاوت الحاصل بين ضفتي حوض البحر المتوسط. واستمرت البعثات مع السلطان **محمد بن عبد الرحمن**، لتبلغ ذروتها على عهد المولى **الحسن**.

تعتبر مسألة البعثات العلمية المغربية موضوعا بكرا، لأن كمّا كبيرا من الوثائق و المخطوطات ذات الصلة بالموضوع، لا زالت حبيسة جدران الخزانات العامة والخاصة، خصوصا مع اتساع دائرة المتدخلين في مسألة البعثات الطلابية، بدءا من ظهائر ورسائل السلاطين الذين بأمرهم تم ابتعاث الطلاب، مرورا بالدفاتر والكنانيش والمراسلات التي تهم القائمين على إعداد وتوفير وسائلها واحتياجاتها، وصولا إلى التراث الذي خلفه المبتعثون من أعضائها. (المدونات والمذكرات الشخصية والمؤلفات).

تفرض هذه الحقيقة على الباحثين أمرين: فأما الأول؛ ضرورة تكثيف البحث والعمل على إظهار هذه الوثائق والمخطوطات، وإخراجها إلى حيز الوجود، وأما الثاني؛ وجوب التريث في إطلاق أحكام أو تعميم استنتاجات يغلب عليها التسرع. الأمر الذي احتطت له و من أجله، فكانت مقاربتي لهذا الموضوع المعنون ب "**المناخ الثقافي والفكري الذي هيّأ ظرفية بروز فكرة البعثات التعليمية للمغرب في عهد السلطان الحسن الأول (1873–1894م)**". للتعريف بالبعثات الطلابية، وتحديد زمانها والغاية منها، والاجابة على إشكالية تتمثل في دور العوامل الداخلية والخارجية في إرسال بعثات تعليمية من لدن السلطان **الحسن الأول** للدراسة والتكوين بأوربا ومصر، ومفاد هذه الإشكالية: هل انبثقت فكرة إرسال البعثات في منتصف القرن التاسع عشر من الحاجة إلى تحقيق إصلاح يقطع مع مواطن الضعف في بنية المخزن وجناحه العسكري والإداري، أم جاءت نتيجة مشُورات ومقترحات ممثلي الدول الأجنبية بالمغرب؟

المبحث الأول: المظاهر العلمية وأهم البعثات الطلابية على عهد العلويين

ظهرت محاولات إصلاحية مع المولى **عبد الرحمان** والمولى **محمد** في الميدان العسكري، إلا أن الإصلاحات الفعلية في كافة العلوم، والإلمام بها جاءت من طرف المولى **الحسن الأول**. فما ميز فترته، هو تفطنه إلى ضرورة ركب عجلة التطور الأوربية. فاهتم بالعلوم وإرسال الطلبة لجلبها. ومن العلوم التي اهتم بها، وحاول نشرها في عهده، يمكن الحديث عن أربع أقسام:

أ. **علم الرياضيات:**

- علم الحساب.
- علم الهندسة؛ والأصل في النقطة وهو فيه كالوحدة في علم الحساب.
- علم النجوم.
- علم الموسيقى؛ (وهو علم تأليف الألحان).

ب. **علم المنطق:**

- معرفة صناعة الشعر وأنواع بديعه.
- معرفة صناعة الخطابة.
- صناعة الجدل.
- صناعة البرهان.
- صناعة المغالطين في المناظر والجدل.

ت. علم الطبيعيات:

- علم المبادئ الجسمانية وهي خمسة أشياء: الصورة، والزمان، والمكان، والحركة.
- علم السماء والأرض، وهو معرفة ماهية جواهر الأفلاك والكواكب، وكيفية تركيبها، ...واختلافها في السرعة والإبطاء، ...وهل خارج العالم جسم آخر أولا، وهل في العالم موضع فارغ لا شيء فيه، وما شاكل هذه المباحث.
- علم الكون، وهو معرفة جواهر الأركان الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض.
- علم حدوث الجواهر بتغير الهواء وتأثيرات الكواكب بحركتها ومطارح شعاعها على الأركان الأربعة، وانتقالات بعضها ببعض بقدرة الله تعالى.
- علم المعادن التي تنعقد من البخورات المختلفة في بطن الأرض، والعُصَارات المتَحَللة من الهواء.
- علم النبات على اختلاف أشكاله واختلاف صُوَّغِه وطُعُومِه، وروائحه وخواصه، ومنافعه ومضاره.
- علم الحيوان، وهو معرفة كل جسم يتغذى، ويحس، ويعيش، ويتحرك على اختلاف أنواعه، وما يشكل ذلك مما ينسب إلى علم الطبيعيات كعلم الطب، والبيطرة، وطبيعة الدواب، والسباع، والطيور، والحرث، وعلم الصنائع أجمع داخلٌ في علم الطبيعيات.
- علم الأنفاس والأرواح السائر في الأجسام الفلكية والطبيعية من الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض.
- علم السياسة وهي خمسة أنواع:
  - ✓ السياسة النبوية.
  - ✓ السياسة الملوكية.
  - ✓ السياسة العامية.
  - ✓ السياسة الخاصية.
  - ✓ السياسة العامية[1].

زيادة على هذه العلوم أعطى المولى **الحسن الأول** اهتمام متزايد بعلم الكيمياء، وهوما فصله صاحب "**الحلل البهية**" من خلال ذكره لنص في هذا السياق يقول: "**وقد قَدَّمْنَا مشاركة هذا الإمام لسائر العلوم الشرعية والرياضية، ومن جملتها علم الكيمياء، وقد اعتنى به اعتناء لم يعهد من غيره، حتى أنه لم يبق بأقطار المغرب ومشايخه من ينتمي إليه إلا وقد أمر بإحضاره، ويحثه عن مبلغ علمه فيه حتى يتحقق عنده ما لديه، وبعده يأمر بمقامه عنده ومصاحبته له حظراً وسفراً، ويرتب له ولعياله ما يكفيه من النفقة والكسوة وغير ذلك، ويشتغل معه فيما يحتاجه إليه، وله [جواسيس] بكل أرض يخبرونه بكل من يتعاطى هذا العلم ويتهم به سراً وجهراً، إلى أن اشتهر به، فجعلت ترد عليه الوفود من أهله بقصد الصنعة من الأجانب من كل أرض، وكذلك أصحاب علم الأسماء والأوفاق لما له من اليد الطولى في ذلك أيضا. وقد بذل أموالاً في تحصيل نتيجة لا تحصى للإنفاق والصِلَّة للمهتمين به ولجلب آلته وما يحتاج إليه من أرض الروم وغيرها، ولم يزل ذلك دأبُه إلى أن مات وهو مجتهد في طلبه رحمه الله** »[2]

1. البعثات على عهد السلطان عبد الرحمان ابن هشام:

منذ هزيمة "إيسلي" سنة 1844م، بدأ السلاطين المغاربة يلتمسون سبل الخلاص بعدما وقفوا على ما كان عليه المغرب من تخلف فكري لا يقل عن تخلفه في باقي الميادين الأخرى، فبدأ الاهتمام بميدان التعليم من خلال حركة إصلاحية بغية اللحاق بركب المدنية الحديثة.

ابتدأت هذه الحركة من أيام السلطان المولى **عبد الرحمان ابن هشام**، ثم استمرت على عهد ثلاثة ملوك من بعده؛ **محمد الرابع**، و**الحسن الأول**، وصدرا من أيام المولى **عبد العزيز**، حيث أرسلت في أيامهم العديد من البعثات الطلابية إلى مصر وأوروبا بلغ عددها إلى مصر فقط ست إرساليات حسب ما ذكره المؤرخ **محمد عبد الهادي المنوني**.

عرفت فترة السلطان سيدي **محمد بن عبد الرحمان** نهضة علمية مهمة، من خلال تشجيعه للمؤلفين وتنشيطه لهم ماديا وأدبيا[3]. وتوجيهه لمصر جماعة من الطلبة، لتلقي العلوم العصرية. وممن نبغ من هؤلاء الطلبة وبرع، **أبو محمد عبد السلام الشريف العلمي** مؤلف "شرح الوركزاني وضوء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة فاس"، و"البدر المنير في علاج البواسير"، و"الأسرار المحكمة في حل رموز الكتب المترجمة". وهو مخترع الآلة ذات الشعاع والظل (منجانة ساعاتية)[4]، حيث خط رسالة في طريقة استعمالها سماها "إرشاد الخل لتحقيق الساعة بربع الشعاع والظل"، وآلة أخرى وهي؛ "جعبة العالم" او أسطوانة العالم؛ وهي آلة تشبه الاسطرلاب، ولكنها على شكل الطبل، وقد قام بإهدائها الى السلطان **محمد الرابع**. وجل الكتب المشار إليها طبعت بفاس .

ومنهم أيضا **أبو العباس أحمد شهبون**؛ الجغرافي الكبير، مصنف كتاب الجغرافية المغربية، يشتمل على صور وخرائط منها: صورة الفلك وصورة كرة الأرض على وجه واحد، مرقوم عليها دائرة الشمس، وخريطة آسيا، مع قائمة بأسماء بحورها وبحيراتها وجزائرها وأنهارها وجبالها وأجناسها وعواصمها وعدد نفوسها وساعاتها، وخريطة لأوروبا كذلك، وأخرى لأفريقية، ورابعة لأمريكا كذلك، وأخرى لأستراليا. وصورة البروج وصفاتها ومنازلها، والكواكب السبع السيارة، وصورة بها موافقة السنة العربية الهجرية والعجمية والمسيحية، وآخرها خريطة إقليم المغرب، كانت توجد من هذا الكتاب نسخة بالخزانة الزيدانية سابقا[5]. ومنهم أيضا **أبو عبد الله محمد بن كيران الفاسي** مخترع ثمن الدائرة عوض الربع[6].

2. البعثات على عهد السلطان مولى الحسن

إن الحديث عن عهد السلطان **الحسن الأول** هو حديث عن أيام كانت فيها الأطماع الاستعمارية والتوسعية الأوروبية متجهة إلى المغرب بوصفه من الدول الإفريقية التي حافظت حتى الربع الأول من القرن العشرين على استقلالها. وكان لازما على السلاطين العلويين أن يحافظوا على هذا المكسب الوطني. وبذلك سارع المولى **الحسن الأول** إلى تكوين أطر قوية، قادرة على الحفاظ للمغرب باستقلاله؛ وذلك بتأليف جيش قوي – بأطره و تدريباته– يستطيع الدفاع عن شواطئه، وثغوره، وإبعادا لكل احتلال أجنبي، وقضاءً على كل طمع خارجي[7].

اتجه المغرب في عهد المولى **الحسن الأول** إلى توجيه البعثات تلو الأخرى للاحتكاك بالتطور الصناعي الجديد في أوربا، ولاقتباس أحدث الطرق لاستعمال السلاح وفي مقدمته المدفعية التي كانت تلعب إذ ذاك دورا فعالا في المعارك، وبالتالي تكوين أطر تقوم هي بدورها بعد رجوعها إلى البلاد بتدريب الجنود والمجاهدين استعدادا لكل الأطماع. واتجه المولى **الحسن الأول** إلى تعليم اللغات الأجنبية كطريق للحوار والمفاوضة، وتفتحا على حضارات البلدان المجاورة، تحضيرا لكل اتصال يتم على الصعيد الدولي، أو تبادل البعثات الدبلوماسية والاقتصادية والتجارية خصوصا[8].

تميز **المولى الحسن** – كما جاء عند صاحب الدرر الفاخرة – ببعثه البعوث من نبغاء دولته لتلقي العلوم الحربية والرياضية بمصر ومختلف دول أوروبا. حيث أرسل: بعثة مكونة من 15 طالبا الى إنجلترا وإيطاليا وبروسيا سنة 1874م، وبعثات أخرى في سنوات

1876م/1879م/1882 م. وهو ما جاء من خلال عدد من الظهائر الحسنية، نذكر من بينها: ظهير عاشر رجب 1299هـ/1882 الخاص ببعثة إيطاليا، وجاء فيه:

"خديمنا الأرض الطالب محمد بركاش، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد فقد اقتضى نظرنا الشريف تعيين أناس ترياست والمكينة وعلم البحر، وأن يفرقوا على نواب بابورات النجليز و الفرنصيص والصبليون والألمان والطليان، وعددهم ستة لكل جنس، واثنان من الستة المذكورين يخصون بتعلم ترياست والمكينة بمدارس تعلم ذلك العلم عند كل جنس ممن ذكر، وأربعة لتعلم البحر، وهم الذين يفرقون على نواب البابورات المذكورين، ويكون صائرهم على جانب المخزن، إذ المقصود تعلمهم، وعليه فكَلِّم نواب الأجناس المذكورين في ذلك، وتفاوض معهم فيه، وأعلمنا بجوابهم لك فيه لنأمر بما يكون عليه العمل في ذلك، وعجل ولا بد والسلام"[9] .

كانت هذه البعثة متكونة من فتيان مغاربة تتراوح أعمارهم بين 13 و16 سنة، وقام السفير الإيطالي (جنطيلي) Gentilé بجولة لانتخاب الفتيان المرشحين للذهاب إلى إيطاليا، فاختار من مدينة الرباط عشرة، ومن سلا خمسة، ومن العرائش أربعة، ومن طنجة ثلاثة، ومن فاس اثنين. في السنة الثالثة استدعاهم مدير المدرسة وقرأ عليهم أمرا ورد من السلطان **الحسن الأول** عن طريق نائبه بطنجة وسفير إيطاليا وأخبرهم أن السلطان يريد أن يتفرقوا على ثلاث فئات:

—فئة لدراسة تربية الجنود.

—فئة لتعلم علوم البحار.

—أخرى لتعلم صناعة السلاح.

ولما رجعوا بعد دراسة خمسة أعوام، تعلما وتجولا في البحار، وظفهم المخزن، وكانوا ذوي خبرة حيث إنهم تخرجوا ضباطا صغارا(Solta officialé di marina) كما أن العسكريين حين رجعوا عملوا بالدائرة المخزنية[10] .

ومن البعثات الحسنية أيضا نذكر:

1. بعثة من عشرة طبجية (المدفعية) تعلموا على يد أساتذة من إنجلترا، استقدمهم السلطان **الحسن الأول** بطنجة للقيام بتكوين طوائف الشباب المغربي، في مهنة الطبجية حتى إذا أحضرت الدولة المدافع الكبيرة لحراسة المغرب، تجد نخبة من المتخرجين المغاربة حاصلين على الكفاءة العلمية والمقدرة المهنية.

2. بعثة لمصر الشقيقة في عهد **إسماعيل باشا** بتاريخ 1293هـ / 1876م. تتعلم خطط الجهاد وعلم البحر، وتطبجييت. استجاب **إسماعيل الخديوي** إذ ذاك لقبول هذه البعثة تكونت من ثلاثين تلميذا، وقع اختيارهم من أولاد "جيش البخاري"، وأهل فاس، وأهل العدوتين؛ سلا والرباط وأهل الصويرة. وقد وعد السلطان الطلاب وعائلتهم بالمراتب العليا لمن برع منهم واجتهد في مهمته.

3. بعثة رابعة لبر النصارى سنة 1294هـ / 1877م ، شاركت سلا فيها بخمسة أفراد صغيري السن، ذوي الذكاء والفطنة لتعلم علوم البحر والرياسة بعد أن يتعلموا ما يكفيهم في ذلك من الألسن بطنجة .

4. بعثة لمدينة طنجة بتاريخ 1301هـ / 1883م، هذه البعثة كلها من مدينة سلا، و يتعلم أفرادها مهنة تطبجييت من المهندس الفرنسي (لوبلان)، le blanc الذي استقدمه **المولى الحسن** من فرنسا لتعليم أبناء المغرب وتدريبهم، والشرط الأساسي هو صغر السن والذكاء والفطنة.

5. بعثة لألمانيا متمثلة في شخصية مرموقة في ذلك العصر؛ الحاج **محمد زنيبر** رئيس الطبجية إذ ذاك، أرسل إلى ألمانيا بتاريخ 1306هـ / 1888م ليتعرف على النظم الحديثة، ويتدرب على أحدث الأساليب في ذلك العهد.

6. بعثة موجهة إلى فرنسا سنة 1290هـ / 1873م، لتلقي العلوم الرياضية في البلاد الأوربية. برز منها الجغرافي **الطاهر بن الحاج**؛ الأودي الأصل، الفاسي النشأة والدار، تخرج بفرنسا واستخدم بدار السلاح بفاس ولم يزل بها إلى أن تعطل العمل فيها عند انتهاء الفترة العزيزية، وله خريطة لجغرافية الأرض على نصفين، جاء رسمها لإفادة القراء الألباء بتعبير **ابن زيدان**[11].

المبحث الثاني: تصنيف البعثات الطلابية والعلوم التي عادوا بها

سأكتفي في هذا المحور على بعثات **المولى الحسن**، وذلك لما توفره لنا هذه الحقبة من مادة خبرية؛ ساعدتنا على تتبع البحث في العلوم التي ذهب طلاب البعثة لتعلمها.

لم تزدهر البعثات التعليمية لأوروبا إلى على عهد السلطان **الحسن الأول**، وتميزت بخاصيتي الاستمرار والتواتر، وفي هذا المجال نتوفر على معلومات، بفضل كناش سجلت تفاصيله بأمر سلطاني، في تاريخ غير محدد ما بين 1887م و1888م، وهو الكناش الذي اعتمد عليه **ابن زيدان** في تدوين أفواج الوفود التعليمية إلى أوروبا طيلة عهد **الحسن الأول**، وعنه أخذ معظم من تطرق لمسألة البعثات التعليمية في عهده، بدءا من **محمد المنوني**، و**عبد الله العروي** وغيرهما. إلا أن المعلومات التي أوردها صاحب "الإتحاف" تتطلب نوعا من التدقيق بالاعتماد على وثائق موازية مغربية وأجنبية، لعل أهمها ما ورد في وثائق الخزانة العامة بتطوان ومديرية الوثائق الملكية، والخزانة الحسنية بالرباط، علما أن **ابن زيدان** اعترف بقلة معلومات حول وفود تعليمية توجهت نحو إيطاليا في أواخر عهد **الحسن الأول**[12].

بالرغم من الصعوبات المالية والإكراهات والضغوطات الخارجية، نجح المخزن الحسني في إرسال المئات من المغاربة إلى الخارج، وحقق بعضهم نتائج متميزة علما ولغة وإنجازا، تضاهي أحيانا ما حققته المتعلمون اليابانيون بأوروبا وأمريكا. تعد إذن البعثات الطلابية المغربية زمن **المولى الحسن**، رمزا للانفتاح المغرب على العلوم الغربية الحديثة، بالرغم من عدم نضج المقدمات السياسية والإرادة الاجتماعية والذهنية. سأحاول هنا إبراز عدد من البعثات الطلابية في فتة حكم **المولى الحسن**، والمراكز أو الوجهة التي وجهت لها، ثم العلوم التي ذهبوا بغرض تعلمها في إحصائيات بجداول:

جداول للبعثات الطلابية المغربية وأبرز العلوم التي تلقوها [13]

– في العهد الحسني –

وجهة البعثة الطلابية	أسماء طلاب البعثة أو أعدادهم	التعليم أو التدريب الذي أخده طلاب البعثة	مدة تكوين طلاب البعثة	تاريخ توجيه البعثة الطلابية
الفوج الأولى	– علي بن بله المراكشي – خمس وعشرون من الجنود	*الفنون الحربية * الحركات العسكرية *الدروس الرياضية	سنة واحدة	1292 هـ / 1875 م

جبل طارق	الفوج الثاني	– الجيلالي بن التهامي الشرادي الزراري – مولاي أحمد الزواق العلوي المراكشي	* الطب العسكري	سنة واحدة	1293 هـ / 1876 م
		– سبعون جندياً	* الحركات العسكرية		
		– عشرة من الطبجية	* الفنون المدفعية		
		– خمس و أربعون جندياً	* فن المدفعية		
	الفوج الثالث	– مائة و خمس و عشرون جندياً – محمد الزروالي الفاسي	* الحركات الحربية		

وجهة البعثة الطلابية	أسماء طلاب البعثة أو أعدادهم	التعليم أو التدريب الذي أخده طلاب البعثة	مدة تكوين طلاب البعثة	تاريخ توجيه البعثة الطلابية
انجلترا	– محمد الجباص – الزبير سكيرج – إدريس بن عبد الواحد الشاوي	* الإجازة في علوم متنوعة في صف الضباط * الدروس الرياضية * اللغة الإنجليزية	خمس سنوات	1293 هـ / 1876 م

وجهة البعثة الطلابية	أسماء طلاب البعثة أو أعدادهم	التعليم أو التدريب الذي أخده طلاب البعثة	مدة تكوين طلاب البعثة	تاريخ توجيه البعثة الطلابية

	– المختار الرغادي – محمد بناني الفاسي – عبد السلام عينوس الأودي	* العلوم الحربية * الدروس الرياضية * اللغة الإيطالية	خمس سنوات	1293 هـ / 1876 م
	– أحمد الجبلي من الرباط	* المدفعية		
	– الحسين الزعري من سلا	* علم السياسة		
إيطاليا	– محمد بن الحاج من الرباط – علي بن طوجة من الرباط – محمد بن سالم من الرباط – محمد بن العياشي من الرباط – محمد البهالي من الرباط – العربي حركات من سلا – عبد الله التيال من سلا – محمد بن حيمي من سلا – محمد بن إسماعيل من سلا	* الفنون البحرية	خمس سنوات	1295 هـ / 1878 م

	– فضول بن صالح من العرائش – علي السوسي من العرائش			

وجهة البعثة الطلابية	أسماء طلاب البعثة أو أعدادهم	التعليم أو التدريب الذي أخده طلاب البعثة	مدة تكوين طلاب البعثة	تاريخ توجيه البعثة الطلابية
	– محمد بن الكعاب الأودي – قاسم الأودي – محمد بن الحاج الأودي	*الهندسة الحربية *الدروس الرياضية * اللغة الفرنسية	خمس سنوات	1293 هـ / 1876 م
فرنسا	– الطاهر بن الحاج الأودي – محمد المنقري – محمد بن علي الحداد – أحمد ابن صالح – إدريس بن الحداد – محمد بن أحمد (المشطون) – المعلم حمان	* صناعة الدخائر الحربية	أربع سنوات	1298 هـ / 1880 م

	– بوسلهام بن حم – محمد بن العباس			

وجهة البعثة الطلابية	أسماء طلاب البعثة أو أعدادهم	التعليم أو التدريب الذي أخده طلاب البعثة	مدة تكوين طلاب البعثة	تاريخ توجيه البعثة الطلابية
بلجيكا	– الطاهر بن الحاج الأودي – محمد المنقري – محمد بن علي الحداد – أحمد إبن صالح – إدريس بن الحداد – محمد بن أحمد (المشطون) – المعلم حمان – بوسلهام بن حم – محمد بن العباس	* صناعة الدخائر الحربية	ثلاث سنوات	1302 هـ / 1884 م

وجهة البعثة الطلابية	أسماء طلاب البعثة أو أعدادهم	التعليم أو التدريب الذي أخده طلاب البعثة	مدة تكوين طلاب البعثة	تاريخ توجيه البعثة الطلابية
	– عبد السلام التولي	* العلوم الحربية		

ألمانيا	– الميلود الزبادي الرباطي – محمد النجار السلوي	* الرياضيات * اللغة الألمانية	خمس سنوات	1293 هـ / 1876 م

وجهة البعثة الطلابية	أسماء طلاب البعثة أو أعدادهم	التعليم أو التدريب الذي أخذه طلاب البعثة	مدة تكوين طلاب البعثة	تاريخ توجيه البعثة الطلابية
إسبانيا	– أحمد بن شقرون الفاسي – عبد السلام الفاسي لقبًا الرباطي الأصل	*الهندسة الحربية *الدروس الرياضية * اللغة الإسبانية	خمس سنوات	1293 هـ / 1876 م

استنتاجات:

–وتولي **المولى الحسن** حكم البلاد، كان لزاما عليه أن يتجاوز المشاكل التي أصبح يعاني منها المغرب، بعد أحداث "حرب تطوان"، التي كانت تبعياتها من أسباب إضعاف خزينة الدولة المغربية، وتوقف عجلة الإصلاح التي سلكها سلفه، فجاءت هذه البعثات كتجديد للكادر المخزني، الذي أراد أن يعوض الأطر الأجنبية بأطر مغربية، وهو الغرض الذي وجهت إليه هذه البعثات.

–استطاع المخزن من خلال اعتماده على تجارب بعض المتعلمين، الاستغناء عن خدمات بعض المهندسين الإنجليز عندما بدأ تتوتر العلاقات الدبلوماسية بين المغرب وإنجلترا قبيل سنة 1882م، ونقرأ ذلك من رسالة وجهها (دريموندهاي) Hay Drummond إلى الوزير **محمد بن العربي النجار** ورد فيها:

"...وبعد وصلنا كتابك تاريخ 22 جمادى الأولى أخبرتنا فيه أن السلطان جعل على خطره الشريف بتعيين الزبير السكيرج، بالوقوف على إتمام إشغال أبراج بطنجة في موضع "سيلبه" وعبد الواحد الفاسي في موضع القائد "مكيوسيلفا" ليكون كبير الطبجية في طنجة"[14].

–جاءت هذه الرسالة في سياق عدم تقبل الدبلوماسية البريطانية قرار المخزن الاستغناء عن خدمات المهندسين الإنجليزيين واقتراح (هاي) Hay من خلالها التريث وحسن معاملتهما[15].

–أشار **الكردودي** بدرجة الإتقان التي تمتعا بها المهندسان المغاربيان في إنجاز عملهما، حيث قال:

"...فصاروا – بعد أن كانوا نكرة – معرفة، وأجازوا وأتقنوا، جاؤوا بما لم يأت به من قبلهم وأحسنوا، حتى أن النصارى حيث شاهدوا عملهم استغربوا صدور ذلك واستحسنوه وسلموه لهم. وقد فاق عملهم عمل النصارى بشدة الإتقان...كل ذلك في مدة يسيرة لو وكل فيها الأمر للمهندسين النصارى لما كمل في أضعاف وضوعف الصائر عليها أضعافا مضاعفة"[16].

-يظهر لنا جليا في موضوع هذه الشهادة، قدرة المخزن على الخبراء الأجانب ببعض أفراد البعثات التعليمية، وهو ما يدل على كفاءة العديد من المتعلمين الذين درسوا ببريطانيا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا، وأهميتهم في تقلد المناصب العسكرية العليا، بل حتى تقلد منصب الوزارة **كمحمد الكباص**.

-يورد لنا **محمد السايح** انطباعه الذاتي حول تجربة البعثات التعليمية في عهد **المولى الحسن** قائلا: "ولما كانت أيام **المولى الحسن الأول** الذي درس الحال من الكتب واهتم بنشر المدنية الجديدة، أراد أن يرجع بالمغرب إلى مركزه ويرفعه على مستوى فقام بوسائل مهمة، منها بعثه البعثات العلمية إلى الأقطار الأوربية"[17].

-غياب العنصر البدوي وهيمنة المنتسبين للحواضر المغربية الكبرى من حيث مواطن اختيار البعثات الطلابية. ثم ما النفقات المالية الخاصة بتمويلها؟

على سبيل الختم:

يتضح أن إدراك سلاطين الدولة العلوية للتفاوت الذي حصل مع القوى الأوربية، والذي تجسد مع هزيمة معركة إيسلي و حرب تطوان، و ما تناقله كتاب الرحلات السفارية التي كانت تقصد بلاد الغرب كما هو الشأن في رحلة "الصفار". ولهذه الأسباب وغيرها حرص السلاطين العلويون، من "العهد الرحماني" إلى ""العهد الحسني، إيفاد البعثات الطلابية إلى الخارج، قصد تكوين كفاءات مغربية للحاق بركب النهضة. فبعد أن وجَّهوها إلى المشرق بادئ الأمر، فإنها ولت وجهتها نحو أوربا، بعد أن تبين لهم أن المشارقة هم أنفسهم توجهوا نحوها.

فيما يخص البعثات الأوروبية فقد توزعت بين جبل طارق وانجلترا وإيطاليا، وألمانيا وبلجيكا. منفتحة بذلك على التخصصات، التي أولى لها السلاطين أهمية؛ من مختلف الفنون والعلوم والحرف: الرياضية، العسكرية، الهندسية والطبية إلى جانب الألسن والتجارة ثم الصناعة. وأثمرت علوما واختراعات ومؤلفات وإنجازات عمرانية. على أن الحكم على مدى درجة نجاح البعثات الطلابية يبقى قاصرا، في انتظار مسح معمق للوثائق والمخطوطات المتعلقة بهذا الموضوع. مما قد يفضي إلى تغيير في مفهوم البعثات العلمية، أو الغاية منها، وحتى إلى توسيع مجالها الزمني.

وتبقى الإجابة في كل ما تم التطرق له هو المحاولة التي استبق لها السلاطين العلويون، حيث تظل صورة كل من؛ **الزبير السكيرج**، و**محمد بن الكعاب**، و**الطاهر الأودي**، و**محمد النجار**، و**الحسين الزعري**، و**أحمد العيدوني** شاهدة على إمكانية نجاح تجربة تحدي التفوق الحضاري الذي خاضه سلاطين المغرب في تلك الفترة. والإجابة عالقة عن سؤال جوهري طرح معكوسا في القرن التاسع عشر: **لماذا تقدم الغرب وتأخر الشرق؟** ليطرح في الفترة الراهنة: **لماذا نجحت البعثات التعليمية اليابانية آنذاك وفشلت البعثات التعليمية المغربية؟**

الهوامش:

[1]– محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية**، ج 2، دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المملكة المغربية، ن ت، 115-116.

[2] – نفسه، 143.

[3] – عبد الرحمان، ابن زيدان، **الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة**، المطبعة الاقتصادية، الرباط، 1937م، 94.

[4] – نفسه، 95.

[5] – عبد الرحمان، ابن زيدان، **الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة**، 96.

[6] –نفسه، 96.

[7]– "تكوين الأطر في عهد الحسن الأول" **دعوة الحق**، العدد 116، ن ت، http://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/2773 .2025-06-20

[8]– نفسه.

[9]– عبد الرحمان، ابن زيدان، **الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة**، 149.

[10] -http://www.matarmatar.net/threads/61470 /.2025-06-01.

[11] – "تكوين الأطر في عهد الحسن الأول" **دعوة الحق**، العدد 116، ن ت، http://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/2773 .2025-06-17.

[12]– عبد الرحمان ابن زيدان، **العز والصولة في معالم نظم الدولة**، ج 2، المطبعة الملكية، الرباط، 1962، 160.

[13]– عبد الرحمن، ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، ج 2، تحقيق علي عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، 2008 م . 543 -546 .

[14] – خالد، الصغير، **المغرب في الأرشيف البريطاني، مراسلات جون دراموند هاي مع المخزن 1846– 1886م**، دار أبي رقراق للنشر بالرباط، الطبعة الثانية، 2009م، 522-523.

15 – خالد، الصغير، **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر 1856–1886م**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1997م، 457.

16 – أحمد بن محمد الكردودي، **التحفة السنية بالمملكة الإصبنيولية**، تحقيق عبد الوهاب منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1963م، 28.

17 – محمد، السايح، "المولى إسماعيل العلوي"، **دعوة الحق**، العدد الثاني، 1 نونبر 1957م، من الصفحة 27 إلى 31.